المجمع 6 (2012/1433)، 173-198

مصطلح الأمية العربية وأثره في التكوين اللغوي والحضاري للعرب

عماد سعد فايز أبو حسن

تلخيص:

تهدف هذه الدراسة إلى مناقشة مصطلح الأمية العربية على مستويي الاصطلاح والتداول وصولا إلى بيان أهميتها وأثره في التكوين المعرفي للعرب.

وعليه، فقد كشفت هذه الدراسة عن أصل المصطلح وبدايات ظهوره ومظاهر وصف العرب به، ودلالات هذا الوصف، كما حققت القول بمفهومه الإيجابي كوصف لأمّة تنزل فيهم الوحي، وتلقت رسالة القرآن بوصفه الكتاب الرائع والمعجز والمؤثر... ولم تغفل ـ كذلك ـ دور يهود في صناعة هذا المصطلح وتطور دلالته السلبية، والذي بدا تحريفا لمصطلح (الجوييم) أي (الأغيار) الذين كان اليهود يرون فيهم جنسا آخر دونهم عرقا ومكانة وثقافة وفضلا...

ولذلك رأى البحث في هذا المصطلح دليلا على فضل العرب ومكانتهم الرائدة في مجال البيان؛ نثرا أو شعرا، كما رأى فيه وجها قويا من وجوه الإعجاز النبوي والقرآني، والذي انعكس أثره بوضوح على لغتهم وبيانهم وثقافتهم، فنزعت لغتهم إلى الموسيقى والغنائية والإعراب، وذاكرتهم إلى التيقظ والقدرة الفائقة على الحفظ والاسترجاع ، ومهد لسيادة التعليم السمعي وقوة الاستدلال والاستشهاد المبني ـ أساسا ـ على المشافهة والحضور والتواصل...

ما المقصود بالأُمّية؟ وهل كان العرب يعرفونها كمفردة أو كمصطلح، قبل ورودها في القرآن الكريم، وبنفس دلالة القرآن لها؟ ثم هل كان العرب – فعلاً – أُمّيين؟ وهل كان النبيّ ﷺ أُمّياً كذلك؟ وهل لذلك من دلالة أو تأثير؟

يبدو أن المعاجم العربية لا تسعف كثيراً في البحث عن أُصول هذه الكلمة أو دلالتها، فلم يرد لها ذكر في جمهرة ابن دريد مثلاً، ولا في صحاح الجوهري، أو مقاييس ابن فارس، أو أساس البلاغة للزمخشري... وقد اكتفى ابن منظور وصاحب القاموس المحيط بإيراد معنيين لها؛ يتلخص الأول في الدلالة على عدم القدرة على القراءة أو الكتابة، والثاني في الدلالة على العيّ والجفاء وقلة الكلام[1]...

---

[1] ابن منظور؛ جمال الدين، أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري المتوفى سنة 711هـ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1990م، مادة (أمم) 34/12. والفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة 817هـ، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط(11)، 1991م، مادة (أمة)، 104/4.

والمعنيان يرجعان إلى أصل واحد يدور حول الجبلة الأولى، أو خلقة الأمّة في البقاء على أصل الولادة قبل تعلم الكلام أو الكتابة[2]، فالأُميّ هو الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب، وهذا هو حال جُلّ العرب إلا قليلا منهم، فنسب من لا يكتب إلى الأمّة التي تميزت بعدم القدرة على الكتابة، فقيل أمي، وأميون، ثم غلب هذا الوصف عليهم جميعا، فشمل من يكتب منهم ومن لا يكتب، كما يقول ابن عباس،[3] فصاروا جميعا في الوصف "أميين".

وبهذا المعنى قال ابن إسحاق[4]، وابن معين[5]، وابن قتيبة[6]، وأبو حيان[7]، والنحاس[8]،

[2] ينظر الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري المتوفى سنة 311هـ، معاني القرآن وإعرابه، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، 1988، 159/1. وابن منظور، لسان العرب، مادة (أمم)، 34/12.

[3] ينظر القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري المتوفى سنة 671هـ، الجامع لأحكام القرآن (المشهور بتفسير القرطبي). تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، 2003، 91/18.

[4] ينظر بن إسحاق، محمد ابن إسحاق بن يسار المتوفى سنة 151هـ، السيرة النبوية، تحقيق: محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث، 62/2.

[5] ابن معين، الحافظ يحيى بن معين المتوفى سنة 223هـ، تاريخ ابن معين، رواية الدوري، دار المأمون للتراث، دمشق، 1400هـ، 419/3.

[6] ينظر ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري المتوفى سنة 276هـ، غريب الحديث، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد، مطبعة العاني، 1397هـ، 384/1.

[7] ينظر أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف المتوفى سنة 745هـ، البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، 384/2001،1.

[8] ينظر الشوكاني، محمد بن علي بن محمد المتوفى سنة 1255هـ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، بيروت، دار الفكر، 207/4.

وابن خلدون[9]، وابن تيمية[10]، وغيرهم[11]، حتى استفاض واشتهر وتواتر.

فالكلام، أو الكتابة كلاهما مكتسبان بالتعلم، والمولود حديثاً لا قدرة له على التعلم، فهما وصفان مفارقان له، لكن الوصف بعدم القدرة على القراءة أو الكتابة هو الأشهر نظراً لأنه يتطلب وقتاً أطول لمعرفته، ويحتاج إلى تعلم ودربة ومران، فيما الكلام أو النطق لا يحتاج لمثل هذا الوقت أو لمثل هذا الجهد في التعلم والمران، ويسبق – دوماً – تعلم القراءة والكتابة... لهذا فإن الوصف بقلة الكلام أقرب إلى الذم إن لم يكن ذماً خالصاً، وهو ما تنزهت عنه العرب حين أدركت غايتها في تطوير لغتها وأدبها وشعرها... فيما يظل الوصف بعدم القدرة على القراءة والكتابة أمراً خلواً من الذم، بل هو إلى المدح أو الفخر أقرب؛ لأنهم – أي العرب – مع عجزهم عن الكتابة أو القراءة، فقد أتوا بما لم يأت به الكاتبون والقارئون، إذ كان أدبهم؛ شعراً ونثراً، مثار إعجابهم، ومبعث فخرهم، وبضاعتهم التي بها يباهون ويفاخرون...

ويبدو أن "الأميّين" وصف لم يبدعه العرب أنفسهم، ولم يعرفوه من أنفسهم ابتداءً، وإنما هو وصف أطلقه عليهم يهود، ولم يلق – على ما يبدو – قبولاً لديهم، أو شيوعاً فيهم،

---

[9] ينظر ابن حجر، أحمد آل بو طامي البنغلي، الرد الشافي الوافر على من نفى أُميّة سيد الأوائل والأواخر، ضمن (مجموعة الشيخ أحمد بن حجر آل بو طامي البنغلي رحمه الله)، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007، 248/6.

[10] ينظر ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني المتوفى سنة 728هـ، تفسير سورة الإخلاص، ضمن كتاب "الفتاوى"، مكتبة المعارف، الرباط، 435.

[11] ينظر على سبيل المثال كل من:

- علي، جواد، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، ط2، 1993، 993/3-1003.
- 2. المباركفوري، تحفة الأحوذي، دار الكتب العلمية، بيروت، 212/8.
- 3. بدوي، عبد الرحمن، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، 1999م. ص24.
- 4. الشرفي، عبد المجيد، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1986، ص470-474.

حتى إنهم توقفوا عنده، فلم يجاوزوه في لغتهم، أو يجيزوه فيما بينهم، ولم يشتقوا له فعلاً أو غيره من أنواع المشتقات، كما يقول إبراهيم أنيس [12]...

ولعله جاء تحريفاً، أو تطويراً لمصطلح "الأُمميين" الذي كان يهود يخلعونه على غيرهم من الأُمم الأُخرى، وهو ترجمة للمصطلح العبري "الجوييم"... حيث يرونه مقابلاً غير متوازن مع أُمتهم المفضلة، وشعبهم المختار، إذ هم المختارون من بين كل الأمم للتشرف بحمل الرسالة والنبوة، واستحقاق التكريم والاصطفاء، فهم شعب الله المختار، وهم– بزعمهم – أبناء الله وأحباؤه، وسواهم "جوييم" أو "أمميون" أو "أميّون" ليس لهم قدر، ولا فضل، ولا قيمة، ولا خُصّوا بخطاب ولا كتاب...

ومع توالي استخدام كلمة "الأُمميين" واستثقال الميمين المتحركتين المتواليتين، فقد سُكّنت الميم الأولى تسهيلاً للنطق، لتوالي الحركات وتوسطها بين ضم وكسر، فتحقق شرط الإدغام، فأُدغمت بالميم الثانية المكسورة، ليصبح اللفظ على هذه الصورة التي وردتنا "الأُميّين" وبها – بعد أن استقرت على هذه الصورة – نطق القرآن الكريم... ويبدو أن دلالتها لدى يهود، تشير إلى الذم والتحقير، حيث يُنسب إلى "الأُمميين" الذين هم دون يهود منزلة، وإلى "الأمّيين" الذين لا دراية لهم بالقراءة أو الكتابة، أو الأجلاف القساة الغلاظ الذين لا دراية لهم بالكلام... وربما هذا المعنى الأخير هو الأقدم، حيث كان العرب كذلك، قليلي الكلام، حالهم كحال كل أمّة بُدائية قبل أن تتهذب لغتهم، وترقى، وإنْ نطقوا، فبالقليل من الكلام، ما يفصح – بالكاد – عن حاجاتهم، وتبدو عليه ملامح التوعر والجفوة والإغراب...

حتى إذا تحول الإغراب إلى إعراب، وقليل كلامهم إلى كثيره، وفصح كلامهم، وصفا خطابهم، وارتقى شعرهم، بدا الوصف بالتوعر أو الجفاء أو قلة الكلام أمراً متوعراً مستغرباً مستهجناً، فتضاءل، وتوارى، واختفى إلاّ من لمحات هنا، أو لمحات هناك، تستلزمها حالات بعينها... لكنهم برغم هذه الكثرة الكاثرة في كلامهم، والتطور الهائل في

---

[12] ينظر أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط4، 1980م. ص187.

بيانهم، ظلوا على ما هم عليه من العجز عن القراءة أو الكتابة، مما آذن بتحول دلالة "الأميين" وتطورها دون لفظها، فظلوا يوصفون بالأمّيين كمؤشر على عدم قدرتهم على الكتابة، أو درايتهم بها، دون أن يكون لهذا الوصف أدنى تأثير في قدرتهم الفائقة في التعبير، ورقيهم الهائل في التوصيل والتأثير...

وهو وصف أطلقه عليهم – كما أسلفنا القول – يهود ذماً لهم وتعالياً عليهم، لكن العرب الأميين – على ما استقر عليه حال هذا المصطلح عندهم – لم يكونوا يستعرّون منه، أو يتأذون من إطلاقه عليهم، بل كان – في الغالب – مبعث فخر لهم ولنبّيهم الأُميّ، وخاصة بعد أن أطلقه القرآن عليهم، وعلى نبيهم محمد ﷺ...

ولولا إحساس العرب بهذا التميز جراء هذا الإطلاق، لما كان للقرآن أن يخاطبهم به فيسكتوا، أو أن يصف به نبيهم محمداً ﷺ دون أن يثير فيهم دواعي الشماتة، أو أسباب التأذي، فضلاً عن أنّ تنزل القرآن به قد رفع من شرف دلالته، ما يعني أن تغيراً في الدلالة جديداً يضاف إلى التغيرات السابقة، قد طرأ عليه بمجرد استخدام القرآن له، فصار يطلق (فضلا عن كونهم وجدوا على حالة لا يعرفون معها قراءة ولا كتابة، ولا كتاب لهم) على القوم المتماهين بغيرهم من الأمم الأخرى، فهم أمميون؛ أي عالميون إنسانيون، لا فضل لعربي على عجمي أو عجمي على عربي إلا بالتقوى، انطلاقا من قول القرآن نفسه **[يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ]** (13)، وانسجاما مع قوله الآخر: **[كُنْتُمْ خَيْرَ أمّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ]**.(14) وهذه الأمة بالتأكيد ليست أمة اللغة ، وإنما المتصفون بصفات يبسطها القرآن ويفصلها: **[تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ]**، وكذلك قوله: **[وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أمّة يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ**

---

(13) الحجرات: "13".

(14) آل عمران: " 110 "

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ]، [15] ولذلك أطلق قوله الآخر: القانون والبرهان: **[وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ]** [16]، أي إنْ تحيدوا عن هذه الصفات التي جعلت منكم أمّة هي خير أمّة أخرجت للناس... وفي موضع آخر يجعل الاستبدال قانوناً لازماً حين يتقاعس الناس عن الجهاد: **[إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ]** [17].

وكثيرة هي الآيات والأحاديث والمواقف التي تؤكد مثل هذا التحول عن العصبية؛ عصبية العرق أو الجنس، إلى الأُممية، حيث تنزّل القرآن لصناعة أمّة، وليس لصناعة شعب...

ومن هنا كان مثل هذا التحول أو الجديد لخلع مثل هذا الوصف على العرب، وهو تغير شكّل عنصر قوة وعامل وحدة، كما شكل دافعا لكل عوامل التوحد والتحاب ورافعة لكل سبل الرقي والتضامن والتكافل...

وحين يكون "الأُميّ" نسبة إلى الأم أو الأمّة، فإن في ذلك إشعاراً بوحدة الشعار والانتماء، حيث تحقق الأم السكينة والطمأنينة والأمن لأبنائها، ورباط الأمّة ينشر الإحساس بالانتماء الواسع الذي يتجاوز حدود العشيرة والقبيلة والقوم...

لذلك كان النبي ﷺ أُمياً، ألغى بأُميّته الواسعة دوائر القبلية الضيقة أو القومية المتوحدة على أساس العرق والجنس، وعاد بالناس إلى أصلهم الذي نبعوا منه وتشعبوا عنه، إلى آدم عليه السلام، وآدم من تراب: **[إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]** [18]، وإلى الأمّة الواحدة التي كان الناس عليها: **[كَانَ النَّاسُ أمّة وَاحِدَةً]**[19] ثم اختلفوا، وحكمة الخلق في الاختلاف، ولولا ذلك لجعلهم ربهم أمّة واحدة: **[وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أمّة وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ]**[20]، ولو جعلهم أمّة واحدة، لجعلهم تابعين

[15] آل عمران: " 104 "

[16] محمد: "38".

[17] التوبة: "39".

[18] آل عمران: "59".

[20] هود: "118".

لهذا النبي الأُميّ الذي يدعوهم إلى الأممية لا العرقية ولا الطائفية ولا القومية ولا الوطنية ولا القبلية ولا العشائرية ولا الحزبية، وبهذا يمكن أن يفهم "النبي الأمي" في عصرنا هذا على أساس العالمية[21]، ويمكن أن يفهم الإسلام كذلك على الأساس نفسه، فالإسلام عالمي يتجاوز حدود القبيلة والوطن والقوم إلى العالم جميعا: **[وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ]**[22]، أو إلى الناس كافة: **[وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ]**[23]، فلم يرسل للعرب وحدهم، أو لقريش وحدها، وإنما للناس كافة؛ عربهم وعجمهم، قاصيهم ودانيهم. ولأنه كذلك، فقد تميز "بالخاتمية"، فقد كان كل نبي قبله يبعث إلى قومه خاصة، وبعثه الله إلى الناس كافة، وبه خُتم الأنبياء، وبرسالته ختمت الرسالات، ولذلك صار الدين عند الله الإسلام: **[إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ]**[24]، وكل دين سواه ردٌّ وباطل: **[وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ]**[25].

وهو فوق ذلك كله "منهم"[26]، أو "من أنفسهم"[27]، تماما كما يكون الأبناء من أنفس الآباء والأمهات، ومن أنفس الأمهات أقرب، لأنه قطعة منها، من أحشائها، فيا لروعة التصوير، كيف تنساب هذه الظلال عاكسة هذا اللمعان المعرفي المشاعري الآخذ بالعقول والألباب، والأمية هذا شأنها؛ تحول عن نسب الآباء الدافع إلى التعصب والفرقة والعداء،

---

[21] ينظر الموقع الالكتروني لرابطة أدباء الشام، www.odabasham.net

[22] الأنبياء: "107".

[23] سبأ: "28".

[24] آل عمران: "19".

[25] آل عمران: "85".

[26] إشارة إلى قوله تعالى: [هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ]، الجمعة: "2".

[27] إشارة إلى قوله تعالى: [لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ]، آل عمران: "16". وقوله أيضا: [لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ]، التوبة: "128".

إلى نسب العقيدة بأن الناس أمّة واحدة، والدافع إلى المودة والرحمة والسكينة واللقاء، فإذا كانت الرسالات السابقة دعوة قبلية أو قومية، فإن الرسالة الخاتمة دعوة أممية عالمية إنسانية تتلاشى فيها نعرات التفاخر بالآباء والأجداد من جهة، وخصومات التطاول بالنسب والحسب والانتماء العرقي من جهة أخرى، ويحل محلها نسب الانتماء إلى الأمّة؛ الأمّة الإسلامية العالمية التي لا فرق فيها بين عرق وعرق، أو بين لون ولون، كل الناس فيها سواء، سواسية كأسنان المشط... أية أمّة هذه إذاً؟ إنها أمّة النبي الأُمّي الأُمّي، صاحب الدعوة العالمية الخاتمة، ونبي الرحمة، الذي يقيم الناس على أصل سواء، كما بدأوا أول خلقهم، لا تفاضل ولا تفاوت إلا بالتقوى... وأية تقوى؟ إنها الدافعة إلى حب الناس، والتماهي معهم لا التفاخر عليهم أو الاستئثار دونهم... هذا – إذن - هو النبي الأمي، وهذه هي الأمية، فماذا صنعت؟ صنعت قوما يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويتدافعون لرفعة بعضهم بعضا، ويتعاونون في خدمة بعضهم بعضا، لا يؤمنون حتى يتحابوا، وحتى يكون النبي الأُمّي أحبَّ إليهم من أنفسهم ومن الناس جميعا، إنها دعوة أساسها الحب لصناعة التكافل والتكامل، وقوامها الحب لنبذ التباغض والتدابر، وسبيلها الحب لوأد العصبية والأحقاد...

لقد بات واضحا إذاً، أن انقلاب الدلالة هذا كان مبعثه الاستخدام القرآني، الذي أحدث توازنا بينهم وبين الكتابيين، فجعلهم أهل كتاب؛ فلم يعد للكتابيين أي فضل عليهم، أو أية ميزة يفخرون بها عليهم، أو يفاخرونهم بها، وزادهم بسطة في سعة الانتماء من جهة، وطبيعته من جهة أخرى، فجعلهم ينتمون إلى أمّة حطّمت قيود العرقية والقبلية والقومية، وسعت إلى احتواء الناس جميعا في إطار عقائدي مشاعري إنساني وعالمي واحد، وهو معنى فهمه أهل الكتاب كذلك، تماماً، كما فهمه العرب الذين لم يكونوا – أصلاً – يقلقون، أو يبدون قلقهم بسبب مثل هذا الاستخدام...

وفي هذا المنحى من التفسير ردٌّ على حيرة إبراهيم أنيس واستغرابه من احتمال هذا اللفظ لمعنى "العيي الجلف الجافي القليل الكلام"[28] وخاصة بعد أن وُصف به النبي ﷺ، فهو معنى ضارب في القدم لم يعد قائماً، ليس في عصر النبوة فحسب، بل قبل ذلك بأكثر من مائة وخمسين عاماً على أقل تقدير... وهو ما يفسر – أيضاً – عدم شيوعه بين العرب، لكن لا ينفي وجوده، وإنْ كان نادراً، على نحو ما يروي لنا ابن منظور من قول شاعرهم:[29]

ولا أعود بعدها كريّا

أمارس الكهلة والصبيّا

والعزَب المنفّه الأُمِّيّا

ثم لا ينسبه لقائل معين، مشعراً بقدر غير كاف من الارتياح له، أو الثقة به... ولفظ "الأميين" ورد في القرآن الكريم على هذه الصورة؛ مُعَّرفاً بأل ومجروراً، ثلاث مرات، مشعرًا في كل مرة بأن المقصود منه إنما هو العرب الذين لا علم لهم بالقراءة أو الكتابة... ففي قوله تعالى:[**وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ**][30]. وقوله:[**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**][31] وقوله:[**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ**][32]، في كل ذلك يكاد المفسرون يجمعون على أن المقصود بالأُميّين – هنا - هم العرب[33]، وزاد ابن عباس

[28] ينظر أنيس، إبراهيم، دلالة الألفاظ، ص187.

[29] ينظر ابن منظور، لسان العرب، 34/12 (أمم).

[30] آل عمران: "20 ".

[31] آل عمران: " 75".

[32] الجمعة "2".

[33] ينظر القرطبي، تفسير القرطبي، 7/2، 30/4، 76. وابن الجوزي؛ أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي المتوفى سنة 597هـ ، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق د. محمد بن عبد الرحمن عبد الله، دار الفكر، بيروت، ط(1)، 1987، 312/1، 19/8. وأبو حيان الأندلسي؛ محمد بن يوسف المتوفى سنة 745هـ ، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(1)، 1993، 429/2. والزمخشري جاد

بأنهم الذين لا يكتبون [34].

وذهب بعض المفسرين إلى القول بأن مصطلح "الأميين" يعني – أيضاً – الذين لا كتاب لهم [35]... وهو قول لم يستند – فيما أعلم – إلى دليل صحيح واضح من اللغة، أو إشارة من استخدام السابقين له، حتى "يهود" الذين يُعتقد بأنهم أول من أطلق هذا المصطلح على العرب، لم يرد عنهم ما يشعر صراحة بأنهم كانوا يقصدون مثل هذا المعنى أو نحوه... فمن أين جاء به هؤلاء المفسرون؟ اللهم إلا أن تكون محاولة من بعضهم لإحداث توازن بين أهل الكتاب وغيرهم من العرب الذين لا كتاب لهم، لإخراج المصطلح من دائرة الدلالة السلبية التي تصور العرب والنبي ﷺ على أنهم أمّة لا تقرأ ولا تكتب، والعجز عن القراءة أو

الله محمود المتوفى سنة 338هـ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997، 375/1. وابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي المتوفى سنة 546هـ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، 414/1، 459، 306/5. والألوسي، أبو الفضل محمد بن عبد الله الحسيني البغدادي المتوفى سنة 1270هـ ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، 1987م. 93/14. والشوكاني، فتح القدير، 268/5. وابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، نشر: دار سحنون للنشر والتوزيع، وطبع دار مصر للطباعة، 1997، مجلد 13، جزء 28، ص208.

[34] ينظر الشوكاني، فتح القدير، 444/1. وقد ورد بهذا المعنى أيضاً؛ أي (الذين لا يقرأون ولا يكتبون) في كل من: القرطبي، تفسير القرطبي، 6/2، 190/7، وابن الجوزي، زاد المسير، 90/1، 19/8، وأبي حيان، البحر المحيط، 402/4، وابن عقبة، المحرر الوجيز، 2/1،459،414،462/169، 306/5، و الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، 159/1، و الألوسي، روح المعاني، 5/1،79/301، 39/14، وابن عاشور، التحرير و التنوير، 573/1، 13/2،208/133، ومحمد عزة دروزة، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية/ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1963، 197/7.

[35] ينظر تفسير القرطبي، 30/4. والزمخشري، الكشاف، 375/1، 402. وأبو حيان، البحر المحيط، 429/2، والراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد بن الفضل المتوفى سنة 502هـ، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: مصطفى عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، 1412هـ، 37/1.

الكتابة عيب فاضح، ونقص كبير، وكأنهم تصوروا زمنهم كزمننا، أو حاجاتهم كحاجاتنا... وإني لأتساءل: ماذا كان في ذلك؟ ما الذي كان يعيب العربي، والنبي ﷺ عربي صميم، حين يجهل أمر الكتابة و القراءة في زمن لم يكن للكتابة أو للقراءة مثل هذا الدور الذي نعرفه اليوم من أمر الكتابة أو القراءة؟

إن القول بان الأُميّين هم العرب الوثنيون الذين لا كتاب لهم، تفسير شاع في كتابات المحدثين وأدبياتهم؛ قال به الجابري[36]، ونصر حامد أبو زيد[37]، ومحمد أبو القاسم حاج حمد [38]، بل إنّ هذا الأخير يُخَطِّئ جُلَّ المفسرين الذين ذهبوا إلى القول بأنّ الأُمّية تعني عدم المعرفة بالقراءة والكتابة... وقد شاع هذا الوجه من التفسير حتى صار الأكثر رواجا في أوساط المثقفين والمستشرقين المتنصرين من أصحاب الفانتازيا الفكرية، فهم يربطون المصطلح العربي "أُمّي" بالمصطلح اليهودي "جوُيم"، ولأن "جوُيم" عند اليهود تعني "الأمم غير اليهودية" فقد انتقلت عدوى هذا الفهم، دون وجه حق، إلى المصطلح العربي، فصار يطلق على العرب "جوِيُم"؛ أي أمميون وأميّون... والحقيقة أنه كان يطلق أيضا على "نصارى العرب"، وفي الفهم اليهودي، فإنه يطلق على سائر الأمم الأخرى؛ كالفرس والروم والأحباش والهند واليونان، وليس على العرب وحدهم، ومن بين هؤلاء من اختص بكتاب سماوي، كالروم والأحباش، فقد كانوا نصارى، فمن أين –إذن– جاء المستشرقون بهذا التخصيص للمصطلح في إطلاقه على العرب وحدهم دون سائر الأمم الأخرى؟

المستشرق "توشيهيكو إيزوتسو" يرى أن القرآن نفسه هو الذي أسس لهذا الفهم في التمييز بين فئتين من الناس؛ فئة أهل الكتاب من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس،

---

(36) ينظر الجابري، محمد عابد، مدخل إلى القرآن (في التعريف بالقرآن)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص77-98.

(37) ينظر أبو زيد نصر حامد، مفهوم النص، (دراسة في علوم القرآن)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت / الدار البيضاء، ط (4)، 1998، ص53.

(38) ينظر حاج حمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية، دار المسيرة، ص160.

وفئة الأميّين الذين ليس لديهم كتاب مقدس، وهاتان الفئتان تناقض إحداهما الأخرى بشكل حاد[39]...

ذلك أن العرب الوثنيين قبل مجيء الإسلام لم يكونوا مُبَلَّغين بعدُ برسالة سماوية، فلم يكونوا بهذا الوصف كفاراً بعد، ولهذا أطلق القرآن عليهم "الأمّيين" لتمييزهم من الكافرين، ومن لم يؤمن منهم بعدُ صار كافراً... فالكفار الحقيقيون – كما يقول إيزوتسو – هم أولئك الذين يُبدون عن قصد مقاومة متشددة للإرادة الإلهية بعد أن بيّن لهم الوحيُ الحقيقة واضحة... [40]

وعليه فإن مصطلح "الأمّيين" في الفكر القرآني يبدو مرتبطاً بقوة بمفهوم "الكتاب" الذي يعني "الوحي"، ومفهوم "الرسول" الذي يعني "التبليغ"، ومفهوم "الضلال" الذي يعني "العلة" أو السبب لاستدعاء الكتاب والرسول معاً... [41]

ولكن مصطلح الأُميّين كان شائعا قبل نزول القرآن واستخدامه له، وليس القرآن هو الذي أحدثه، أو كان أول من استخدمه... إن "إيزوتسو" يجيب عن التطورات التاريخية للمصطلح، وليس عن ولادة المصطلح.

مستشرق آخر هو المستشرق الفرنسي "باريه" يرى أن مصطلح الأُميّة مقابل لمصطلح "أهل الكتاب"، ومن المحتمل أن يكون اليهود هم من وضعوه أول مرة للدلالة على الوثنيين، لكن المعاني التي كان يقصدها محمد من "الأُميّ" تبدو صعبة وغير يقينية، والحقيقة - يقول "باريه" – إن كلمة "الأُميّ" لا علاقة لها بالقراءة والكتابة...[42]

---

[39] ينظر توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن، (علم دلالة الرؤيا القرآنية للعالم)، ترجمة: هلال محمد جهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2007، ص134.

[40] السابق، ص135.

[41] السابق، ص135.

[42] ينظر " دائرة المعارف الإسلامية " لجماعة من المؤرخين، 645/2 وما بعدها، مادة " أمي "، وحمدان، نذير، الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، من سلسلة كتاب رابطة العالم الإسلامي، العدد (3)، 1981،

هنا نسأل باريه: لماذا؟ "باريه" ومعه جُلُّ المستشرقين لا يجيبون عن هذا السؤال صراحة وبوضوح؛ لأنهم يدركون أن الإقرار بأُمّية النبيﷺ على هذا النحو، يقطع الطريق على الادعاء بأن القرآن من صنع محمد ﷺ، فكيف يتأتى لرجل أُميّ لا يحسن أن يقرأ أو يكتب، أن يأتي بهذا النص المعجز، فلا بد إذن من ردّ هذا الفهم، أو هذا النحو من التفسير، كي يكون ممكناً بعدها القولُ بأن آخرين من غير الأُمّيين ساعدوه، وأنه كان يقرأ في كتبهم، أو يأخذ عنها ما يراه مناسبا للعرب وأحوالهم وعاداتهم...

إن "باريه" هنا لا يكتفي بجعل "الأُمّية" مصطلحا مقابلا لمصطلح "أهل الكتاب" وإنما يتجاوز ذلك إلى نفي كونه ﷺ لا يعرف القراءة والكتابة، وهو الشائع بين المستشرقين والمبشرين، ليكون ذلك مدخلا لهم إلى الطعن بصحة النص القرآني، ونبوة محمد ﷺ، وأنه ﷺ بفعل قدرته على القراءة والكتابة، قد اطلع على ما لدى أهل الكتاب من معارف وأخبار وتشريعات، وصاغ منها هذا القرآن الذي جعله كتابا مقدسا للعرب الأميّين الذين لم يكن لهم من قبل كتاب مثله...

إن القول بأُميّة النبي ﷺ يقطع الطريق على كل الذين حاولوا الطعن بالوحي، وأن الرسول ﷺ قد تعلم التوراة والإنجيل أو غيرها من كتب القدماء، وأدخل عليها بعض التفاصيل الصغيرة من عنده، ومن وحي حياة العرب، وجعلها بهذا المزيج الغريب قرآناً...

والقرآن نفسه يرد عليهم: **[وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ]** (43) وقوله: **[وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا]** (44)، لذلك كان القول بأميته ﷺ سداً منيعاً أمام كل هذه الطعون: **[وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ]** (45)...

ص107-108، وأنور محمود زناتي، المستشرق باريه الفرنسي – شبهة انتفاء أمية الرسول، (شبكة نور الإيمان): www.noureleman.com

(43) النحل: "103".

(44) الفرقان: "5".

(45) العنكبوت: "48".

ومع ذلك جاء المستشرقون [46] يعيدون ما ردده المشركون القدماء بغباء منقطع النظر، ولا أقوى من الردّ عليهم بما ردّ القرآن على أسلافهم المشركين، فالنبي ﷺ أمّي لم يعرف قراءة ولا كتابة ولا عهد له بالقراءة والكتابة، إنه الانقطاع المعرفي التام والكامل، لم يعلمه سوى الذي خلقه وبعثه نبياً للعالمين...

ولهذا حاول المستشرقون صرف مفهوم (الأُمّية) إلى القوم الذين لا كتاب لهم، ليتسنى لهم الطعن بالوحي، عن طريق إثبات قدرة النبي ﷺ على القراءة والكتابة، وأنه أخذ معارفه من كتب الأقدمين، ومن التوراة والإنجيل خاصة...[47].

فالمستشرقون- إذن- يرفضون أمية النبي ﷺ، ويتأولونها... ومع ذلك فإن عدداً من المستشرقين لم يجدوا بُدّاً من الإقرار بحقيقة كون النبي ﷺ ومعه جُل العرب، لا يحسنون القراءة والكتابة، وفهموا مصطلح الأمّية على هذا النحو، فهذا "شارل بلاّ" المستشرق الفرنسي المشهور يقول عنه: "ولم يدوّن هو بنفسه منه شيئا فقد كان أميّا" [48]، فواضح أنه يرى "الأمّية" في عدم المعرفة بالقراءة والكتابة...

وهذه المستشرقة "كارن أرمسترونج" ترى إنكار هذا الفهم نوعاً من التحدي لتراث المسلمين التفسيري، واستنتاجاً خاطئاً لا يستند إلى أي دليل، حيث لا توجد أية إشارة تاريخية أو نصية تظهر محمداً ﷺ قادراً على الكتابة، بل العكس هو الصحيح، فقد كان يملي رسائله على أصحابه، ولا يعقل أن يخفي عنهم قدرته على الكتابة طيلة حياته...[49]

ومن المستشرقين الذين أقروا بأمّية النبي ﷺ حسب هذا الفهم:

---

[46] ينظر حمدان، نذير، الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، ص83.

[47] السابق ص108-110.

[48] ينظر شارل بلاّ، تاريخ اللغة والآداب العربية، تعريب: رفيق بن وناس، وصالح حيزم، والطيب العشاش، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص77.

[49] ينظر Karen Armstrong , Muhammad: abiography of the prophet. Newyork, Harper Collins , 1993 , p.88

لوفبيجو مرتشي (Marraci)، وهنري بريدو (Prideau)، وسيمون أوكلي (Ockley)، و ك.ف جروك (Gerock)، و ج.م. أرنولد (J.M. Arnoid)، و بالمر (Palmer)، وآخرون...[50]

وفي ذلك ما يكفي للرد على أولئك المتنطعين الذين يحاولون – على الدوام – تشويه الإسلام ورسول الإسلام، وصد الناس عن الهدى والحق...

يبقى أن نقول هنا، إن القول بأن الأميّين هم العرب الوثنيون الذين لا كتاب لهم، لا يتناقض مع القول بأنهم يجهلون أمر القراءة والكتابة، فكونهم "لا كتاب لهم "، هذا توصيف تاريخي، وكونهم "لا يعرفون القراءة والكتابة "، هذا توصيف معرفي، ومع ذلك، فإن كونهم "لا كتاب لهم" لا يمنع من كونهم "لا معرفة لهم بالقراءة والكتابة "، بل إن ذلك أجدر بهم، فما داموا لا كتاب لهم فأولى بهم إذن أن يكونوا غير قادرين على معرفة القراءة والكتابة؛ لأنهم لا يعكفون على كتاب يقرؤونه أو ينسخونه، ولو كان لهم كتاب، لكان جهلهم بالقراءة والكتابة غير مبرر على الإطلاق، وكان الوصف به ذماً مطلقا وأمراً معيباً، خلافاً لما شاع عنهم، وعُرف منهم.

لقد كانت دلالة الوصف بالأُمية، فيما يخص العرب، دلالة إيجابية، لكنها لم تكن كذلك فيما يخص الكتابيين أنفسهم، واليهود منهم على وجه الخصوص، فقد كان عيباً وعاراً أن يوصف أهل الكتاب بذلك، والقرآن خير شاهد على ذلك، ففي قوله تعالى: [**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وإن هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**] [51]، إشارة واضحة إلى فريق من أهل الكتاب عاجزين عن معرفة الكتاب، جاهلين به؛ إما لعجزهم عن القراءة أو الكتابة، كما هو حال غالبية العرب من حولهم، وإما لعجزهم عن فهم الكتاب وتفسيره، بحيث لا تتجاوز قراءاتهم للكتاب ظاهر اللفظ، أو مجرد التلفظ والتلاوة، وإما لامتناعهم عن الاستجابة له وتطبيقه، بحيث لا يتجاوز أثره حناجرهم حين ينطقون، أو آذانهم حين

---

[50] ينظر الموقع الالكتروني: " www.islamweb.net "

[51] البقرة: " 78 ". وفي تفسير هذه الآية ينظر كل من: * القرطبي، 6/2. * وابن الجوزي، زاد المسير، 90/1. * وأبي حيان، البحر المحيط، 441/1.*وابن عطية،المحرر الوجيز، 1 / 169.

يسمعون، فعلمهم بالكتاب لا يتجاوز "الأماني" التي هي جمع أمنية؛ أي القراءات المتكررة له... يدل على ذلك قوله تعالى في وصف فعل الشيطان في التشويش على قراءة النبي ﷺ: [**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ أَيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**][52]... وهذا يخص الفهم، فلا يرون فيه سوى تراتيل تتلى دون وعي أو تدبر، أو قد تكون "الأماني" بمعنى "الأمنيات" المشتقة من "التمني" وهي ما لا يمكن دركه أو تحقيقه، وهذا يعني التخيلات التي تتراءى لهم، وهذا يخص القراءة أولاً؛ حيث تبدو مثل هذه القراءة أمنية مستحيلة، أو بعيدة المنال، كما يطال الفهم أيضاً؛ حيث يتعذر الفهم لتعذر القراءة، أو يتعين الظن؛ أي الشك والإعراض، لغياب اليقين؛ أي العلم والإيمان، ولذلك ناسب أن يكون التعقيب بقوله: [**وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**]... وقد تكون "الأماني" بمعنى "الأباطيل والأكاذيب" وهذا يخص الترجمة أو التفسير؛ حيث تحرف الدلالة إلى معان أخرى غير مرادة، أو غير المرادة، يغلب عليها طابع الكذب خدمة للباطل ومجانبة للحق... وربما يُكشف – هنا – جنوح إلى الولوع بالأساطير التي تغيّب الحقيقة وتخلطها وتزيفها وتحرّفها، والأساطير صنو الأباطيل ومادتها، ولهذا وقع في ظن المشركين، ومعهم أهل الكتاب، شيءٌ من هذا القبيل حين كان الرسول ﷺ يتلو عليهم القرآن، فردوا قائلين بأنها: [**أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**][53]...

بقي أن نشير- هنا – إلى أن الرسول ﷺ قد وُصف بالأمّي في موضعين متتابعين من سورة الأعراف؛ الأول في قوله تعالى: [**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ**][54]... والثاني في قوله تعالى: [**فَأَمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**] [55]... ويبدو أن الخطاب في الأول موجه

---

[52] الحج: " 52 ".

[53] الفرقان: " 5 ".

[54] الأعراف:"157".

[55] الأعراف:"158".

إلى أهل الكتاب خاصة، كي يتبعوا هذا الرسول النبي الأمي؛ حيث يعرفون صفته كما يجدونها مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، فيما الخطاب في الثاني موجه إلى الناس كافة، كي يؤمنوا بهذا النبي الأمي، ويتبعوه لعلهم يهتدون...

ووصف النبي ﷺ بالأُمي دلالة قاطعة على انتفاء معرفتهﷺ بالقراءة أو الكتابة، وقد تبين هذا عملياً حين تنزل عليه جبريل (عليه السلام) في غار حراء قائلاً له: إقرأ... مكرراً ذلك مرات عديدة، والرسول ﷺ يردد في كل مرة – باستغراب ودهشة – ما أنا بقارئ [56]...

وقد أكّد القرآن الكريم هذه الصفة اللازمة للنبي ﷺ بقوله: [**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**] [57]، كما ورد عن ابن عباس ما يؤكد هذه الصفة اللازمة من كونه ﷺ أمياً لا يكتب، ولا يقرأ، ولا يحسب [58]... ناهيك عن تأكيده ﷺ هذه الصفة، ليس لنفسه فقط، بل للعرب جميعاً؛ فقد ورد في الصحيح فيما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: "إنا أمّة أمّية لا نكتب ولا نحسب"[59]. وقوله: "بُعثت إلى أمّة أُميّة" [60]...

---

[56] متفق عليه، من حديث بدء الوحي. ينظر: البخاري؛ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المتوفى سنة 256هـ، صحيح البخاري، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 214/6(كتاب = التفسير). ومسلم؛ أبو الحسين مسلم بن الحجاج المتوفى سنة 261هـ، الجامع الصحيح، دار الفكر، بيروت، 97/1(كتاب الإيمان).

[57] العنكبوت:"48".

[58] ينظر تفسير القرطبي، 190/7.

[59] متفق عليه، وهو في صحيح البخاري، 1913. وفي صحيح مسلم، 761/2، وفي هذا المجال ينظر كل من: * القرطبي، 6/2، 190/7. * وابن عطية، المحرر الوجيز، 169/1، 306/5 . * وأبي حيان، البحر المحيط، 402/4. * والألوسي، روح المعاني، 79/5، 93/14. * وابن منظور. لسان العرب، 34/12 (أمم).

[60] ينظر ابن منظور، لسان العرب، 34/12 (أمم).

وكونه ﷺ أُمياً من جملة المعجز، كما يقول أبو حيان [61]، فهو تنبيه على أن كمال علمه مع حاله من الأُمّية، إنما هو إحدى معجزاته ﷺ. [62] أو بتعبير ابن منظور: "إحدى آياته المعجزة" [63]، لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوماً تارة بعد أُخرى، بالنظم الذي أُنزل عليه، فلم يغيّره، ولم يبّدل ألفاظه، وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها، زاد فيها ونقص، فحفظه الله عز وجل على نبيه كما أنزله، وأبانه من سائر من بعثه إليهم بهذه الآية التي باين بينه وبينهم بها [64]...

والأُميّة على هذا النحو – كما يشير ابن عاشور [65] – وصف خص الله به من رسله محمداً ﷺ على وجه الكمال والإعجاز، فصارت أُميّته آية على كون ما حصل له إنما هو فيض إلهي من لدن عليم حكيم...

ووصف العرب بالأميّين ليس علي سبيل التأبيد، ولم يقل أحد بذلك، وإنما كان مرحليا، وقد فارقهم هذا الوصف بعد نزول القرآن الكريم وظهور الإسلام، فلم يعد يطلق عليهم أميّين، ولا على من دخل دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وإنما صاروا جميعا؛ عرباً وغير عرب، مسلمين، ولو صح أنهم كانوا يُسمَّونَ أميّين لأنهم لا كتاب لهم كاليهود والنصارى، لكان لزاماً أن يتحولوا بعد نزول القرآن والكتاب، إلى كتابيين، وأن يصبحوا جزءاً من أمّة أهل الكتاب، وأن يصيروا في الوصف سواء، ولما لم يحدث ذلك، ولم يُطلق عليهم، "أهل الكتاب" بعد أن صار لهم "كتاب سماوي"، فقد بات واضحاً، إذن، أن الوصف بالأميّين قبل أنْ يُنزل عليهم الكتاب لم يكن بسبب عدم وجود كتاب لهم...

كما أن الوصف بالأميّين بمعنى الأُمميين، إنما هو محض اجتهاد أو استنتاج، يفتقر إلى الدليل، فهو وإنْ يكن صحيحاً في معناه؛ حيث تؤيده الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

---

[61] ينظر أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 402/4.

[62] ينظر الألوسي، روح المعاني، 79/5.

[63] ينظر ابن منظور، لسان العرب، 34/12 (أمم).

[64] السابق، 34/12.

[65] ينظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، 133/5.

وإجماع الأمّة وواقعها، إلا أنه خطأ في مؤداه؛ إذ يتعين أن يكون النبي الأُمي لكل الأمم؛ مؤمنهم وكافرهم، فكل الناس أمته، والواقع خلاف ذلك، إنما المؤمنون فقط الذين يتبعونه من هذه الأمم، وهم الذين يدخلون في أمته، فهو نبيٌّ صاحب أمّة لا أُمم... إنه مبعوث إلى كل الأُمم ليدعوها إلى الدخول في أمّة واحدة، هي أمّة الإسلام المتفردة بصفات خصها الله بها دون سائر الأمم تحقيقا لدعوة أبينا إبراهيم عليه السلام: [**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أمّة مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...**] [66]، وهي دعوة تحققت في قوله تعالى: [**كُنْتُمْ خَيْرَ أمّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**] [67]، وكان حرص الرسول ﷺ على أن يكون الناس كلهم مؤمنين، ليكونوا من هذه الأمّة المؤمنة، فعاتبه ربه قائلا: [**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**] [68]، أي من هذه الأمّة المؤمنة، فقال مؤمنين ولم يقل أُمميين، لأنه سبحانه لو أرادهم أمّة واحدة كما كانوا من قبل حيث: [**كَانَ النَّاسُ أمّة وَاحِدَةً...**] [69] لجعلهم جميعا مؤمنين، أو لجعلهم جميعا كافرين... فالإيمان والكفر هما مقياسا الانتماء إلى الأمّة؛ فالمؤمنون أمّة واحدة بإيمانهم، والكافرون أمّة واحدة كذلكِ بكفرهم، [**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أمّة وَاحِدَةً**] [70]، أي على الإيمان، [**وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أمّة وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ**] [71] أي على الكفر... فكان الناس بهذا التميز أُمتين؛ أمّة الإيمان، وهي أمّة النبي الأمي، الأمّة المسلمة... وأمّة الكفر، وهي الأمّة المخالفة لهذا النبي الأمي، والمنكرة لدعوته ونبوته والنور الذي أُنزل معه، ليخرجهم من الكفر إلى الإيمان.

---

(66) البقرة: "128".

(67) آل عمران: "110".

(68) سورة يونس، آية (99).

(69) البقرة: "213".

(70) هود: "118".

(71) الزخرف: "33".

ولو كان المؤدى صحيحا للزم أن يطلق على الدين الجديد "الدين الأمي" وعلى متبعيه "الأمميين"، ولكن شيئا من هذا لم يحدث، والله لم يسمنا "أمميين"، وإنما سمانا "مسلمين": [**مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**][72]، وسمى ديننا الإسلام: [**وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**][73]، وجعله الدين الوحيد المقبول عنده في السموات والأرض: [**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**][74]، ومن يبتغي دينا غيره فهو من الخاسرين: [**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**][75].

وأما القول بأن الأمّي والأمّية منسوبان إلى "أم القرى" [76]؛ أي مكة، لقوله تعالى: [**وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**] [77]، فالنبيّ هو الأمّي، وأهل مكة هم الأمّيون، أو القول بأنها نسبة إلى "أم الكتاب" [78]، الوارد في قوله تعالى: [**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**][79]... فهذا وذاك قولان يضربان بعيداً في عالم الخيال، ولا يفضيان إلاّ إلى ظنون وأوهام لا تغني من الحق شيئا، ويخالفان الحقيقة التاريخية الثابتة التي تؤكد هذا الوصف للعرب وللنبي أيضا، قبل تنزل القرآن...

لقد بات واضحاً – إذن – أن الرسول ﷺ ومعه جُلُّ العرب، قد كانوا أميّين لا يقرأون ولا يكتبون، وأن هذا الوصف لم يكن لهم ذماً، وإنما كان بالنسبة للرسول ﷺ معجزاً،

---

(72) سورة الحج، آية (78).

(73) سورة المائدة، آية (3).

(74) سورة آل عمران، آية (19).

(75) سورة آل عمران، آية (85).

(76) ينظر الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم (في تصريف القرآن)، ص96.

(77) الأنعام: "92".

(78) السابق، ص97.

(79) الزخرف: "4".

وبالنسبة لهم مجانساً، حيث كانوا مثله ﷺ أميين لا يفخر أحدهم على غيره بكونه متعلماً يعرف الكتابة أو القراءة، ولا يُذم أيٌّ منهم بكونه أُمياً يجهل الكتابة أو القراءة... هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فإنا نلمس أهمية هذه الأُمية العربية بكونها مهدت الطريق أمام البيان القرآني كي يصل إلى أفئدتهم بأسرع الطرق وأيسرها دون أن يعوقه عائق، أو يختلط بغيره، أو يعترض سبيله انشغال القوم بأمور كتابتهم وحساباتهم... فلأنهم أميون، فقد ركزوا اهتمامهم على السماع، فكان وسيلتهم الوحيدة في معرفة الأخبار ورواية الأشعار وتناقلها، كما كان أداتهم الوحيدة – كذلك – لحفظ هذه الأخبار والأشعار التي شكلت جُلّ ثقافتهم، ثم بعثها من جديد حين تستدعيها حاجة، أو تقتضيها ضرورة... وهو طريق لا يحتاج إلى أدوات أو وسائل أكثر من مجرد الإنصات، فما أن ينصت القوم لخطاب القرآن حتى يتبين لهم هدفه، ويدركوا مقاصده، فيشكلوا موقفاً منه بالقبول أو الرد...

لذلك ركّز القرآن الكريم على الاستماع، وجعله طريق العلم والتعلم، وكان نصه مُنْتَجاً بما يتجانس معه ويتهيأ له، فلم يتنزل مكتوباً، إذ كيف يتنزل مكتوباً على نبيّ لا يقرأ المكتوب؟ وعلى أمّة لا تعرف القراءة أو الكتابة؟ وإنما تنزل مقروءً مسموعاً، ليكون متجانساً مع قدرات هذا النبي الأمي، من جهة، ومع قدرات هذه الأمّة الأميّة من جهة أُخرى، والتي بلغ المسموع لديها غايته...

ولقد جاءت الكتابة لاحقاً لدواعي الحفظ والتثبيت كأمر مساند وداعم للسبيل الأساسية المعروفة لديهم: سبيل السماع... ولعل تنزل القرآن مسموعاً مظهر آخر من مظاهر إعجاز القرآن، حيث يتناسب مع مَنْ تنزل عليهم، ومع مَنْ سيخلفهم حتى قيام الساعة... ويكفي أن ننظر الآن إلى حال عصرنا الذي نعيش فيه بعد أكثر من أربعة عشر قرناً من تنزل القرآن، لندرك إلى أي حدّ كان القرآن منسجماً مع الطبيعة البشرية، ومتفقاً مع الحاجة الإنسانية وإمكاناتها... فعصرنا الذي يتسم بالسرعة في كل شيء، قد عاد يعتمد – وبشكل متسارع – على السماع، حيث أخذ التسجيل الصوتي الإلكتروني يحل محل الكتاب، كما أن الخطابين: الإعلامي والعلمي – أيضاً – قد صارا يتكئان – بشكل أساسي ومباشر – على الوسائل المسموعة، ويريان فيها أداتهما الرئيسية لتبليغ رسالتيهما، وتحقيق

غايتهما... ولهذا يبدو – كما يقول إبراهيم أنيس – أن الكتابة ستفقد أهميتها في التسجيل والتدوين، وسيحل محلها التسجيل الصوتي حين تصبح أدواته في متناول الناس جميعاً[80]... وهذا – بالفعل – ما حصل... أو أوشك أن يحصل...

وعلى هذا النحو يمكن أن نتبين آثار هذه الأمية في الثقافة اللغوية لدى العرب، حيث يبدو التركيز على السمع كوسيلة أساسية للمعرفة، وما العين إلا وسيلة مساعدة لها، تربط بين المسموع، أو المنطوق، ومنطلقاته، أو تجعل له حدوداً، أو تضع له قيوداً...

فتركيز الاعتماد على السماع قد قصّر مسافة الفهم، وآذن بسرعة الإدراك، كما درّب الأذن على قوة الالتقاط الصوتي، والذهن على سرعة تمييزه... وهو أمر يفسر السر في نزوع اللغة إلى الموسيقى لأجل تنشيط الذاكرة وإغرائها بالاحتفاظ بما يصلها عن طريق السماع، وتسهيل مهمة انبعاثه من جديد حين تقضي الحاجة إليه...

ولا يخفى أن مثل ذلك إنما يعكس السمة الموسيقية والغنائية للنص الأدبي، ويجيب – بالتالي – عن سؤال ما زال مطروحاً بشدة، مفاده: لماذا كان الأدب العربي عامّة، والشعر على وجه الخصوص متميزاً بهذه الموسيقى الغنائية، وهذا الإيقاع العذب؟

ذلك أمر يضعنا في مواجهة مستمرة ومكشوفة مع طبيعة العقلية العربية قبل البعثة وبعدها، وهي مواجهة تدفعنا باتجاه البحث في تفاصيل الأمية العربية ووقعها على ثقافتهم ومشاربهم ومقوّمات فكرهم، وأساليب تفكيرهم، والتعرف – من ثم – على أهم ما خلّفته من آثار كان لها – دون مبالغة – بالغ الأثر في توجيه الفكر الإسلامي بعامّة، نظراً لدورها الواسع في التعاطي مع النص القرآني، واستكشاف آفاقه، واستكناه معالمه وعوالمه...

وأستعير – هنا – من إبراهيم أنيس[81]، أهم هذه الآثار وأكثرها وضوحاً وشيوعاً، والتي يمكن أن تلمح في القضايا التالية:

---

[80] ينظر إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص193.

[81] السابق، ص195-224.

1- موسيقية البيان العربي وغنائيته، وظهور ما يعرف بالسجع والاتباع والمزاوجة، والجناس، وغيرها...
2- قوة الذاكرة، والاعتماد على الرواية والحفظ في التثبت والنقل.
3- السرعة في التسجيل الصوتي في الذاكرة، والسرعة في الانبعاث الصوتي من الذاكرة...
4- سيادة التعليم السمعي عند العرب.
5- وصل الكلام، وما تولّد عنه من حركات الإعراب.
6- تطور في دلالة الألفاظ، وظهور ما يعرف بالمشترك اللفظي والترادف، والتضاد...

وهي قضايا بدت واضحة في النص القرآني، حيث ركّز القرآن على السماع كوسيلة للتعلم والمعرفة، وكطريق للتوصيل والتأثير، كما تبدت الموسيقية المرهفة والإيقاع العذب بأبهى حللهما في مختلف سوره وآياته، فأمكن من تسهيل عملية حفظه ونقله وروايته، كما سهل عملية استرجاعه وانبعاثه وتوظيفه... ولا يفوتنا أن نذكر بأن جدلاً كبيراً قد ثار حول تضمنه، أو تضمن دلالاته للمشترك اللفظي، والترادف، والتضاد...

أليس ذلك دافعاً قوياً للقول بأن الأمية العربية قد بدت معالمها واضحة في ما تركت من آثار بيّنة على جوانب عديدة من النص القرآني، بألفاظه ودلالاته، ومختلف تنوعاته وتكوناته الصياغية والتركيبية...؟

تلك هي – إذن – أمية العرب؛ فكرة بدت عاملاً إيجابياً في كثير من جوانبها وإن كانت في جوانب أخرى تحتاج إلى معالجة تكميلية، تعيد لأدبهم دوافع نهوضه وتطوره وتفرده، وتسهم في استكشاف معالم تكوّنه وبيانه...

ببليوغرافيا

1- الألوسي، أبو الفضل محمد بن عبد الله الحسيني البغدادي المتوفى سنة 1270هـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. بيروت: دار الفكر، 1987.

2- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى سنة 151هـ **السيرة النبوية**، تحقيق: محمد حميد الله. د.م: معهد الدراسات والأبحاث، د.ت.

3- أنيس، إبراهيم. **دلالة الألفاظ**. ط.4. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1980.

4- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المتوفى سنة 256هـ **صحيح البخاري**. مؤسسة التاريخ العربي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت. وطبعة أُخرى ضمن كتاب **موسوعة السنة: الكتب الستة وشروحها**. تونس: دار سحنون، / وط.2. استانبول: دار الدعوة، 1992.

5- بدوي، عبد الرحمن. **دفاع عن القرآن ضد منتقديه**. القاهرة: الدار العالمية للكتب والنشر، 1999.

6- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني المتوفى سنة 728هـ "تفسير سورة الإخلاص" ضمن كتاب "**الفتاوى**". الرباط: مكتبة المعارف، د.ت.

7- الجابري، محمد عابد. **مدخل إلى القرآن** (في التعريف بالقرآن). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006.

8- ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي المتوفى سنة 597هـ **زاد المسير في علم التفسير**. تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله. بيروت: دار الفكر، 1987.

9- حاج حمد، محمد أبو القاسم. **العالمية الإسلامية الثانية**. د.م: دار المسيرة، د.ت.

10- ابن حجر البنغلي، أحمد آل بو طامي. **الرد الشافي الوافر على من نفى أمية سيد الأوائل والأواخر**. ضمن (مجموعة الشيخ أحمد بن حجر آل بو طامي البنغلي رحمه الله). قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007.

11- حمدان، نذير. **الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين**. من سلسلة كتاب رابطة العالم الإسلامي. العدد (3). 1401هـ - 1981.

12- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف المتوفى سنة 745هـ. **تفسير البحر المحيط**. بيروت: دار الكتب العلمية، 2001. وطبعة أخرى بتحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين. بيروت: دار الكتب العلمية، 1993.

13- دروزة، محمد عزت. **التفسير الحديث**. د.م: دار إحياء الكتب العربية / ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1963.

14- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل المتوفى سنة 502هـ. **مفردات ألفاظ القرآن**. تحقيق: مصطفى عدنان داوودي. دمشق: دار القلم، 1412هـ.

- الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري المتوفى سنة 311هـ. **معاني القرآن وإعرابه**. شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي. بيروت: عالم الكتب، 1988.

- الزمخشري؛ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر المتوفى سنة 538هـ. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. القاهرة: مطبعة الاستقامة، 1946. وطبعة أخرى بتحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1997.

15- أبو زيد، نصر حامد. **مفهوم النص** (دراسة في علوم القرآن). بيروت: المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع/ ط.4. المغرب: الدار البيضاء، 1998.

16- الشرفي، عبد المجيد. **الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي**. د.م: الدار التونسية للنشر، والجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد المتوفى سنة 1255هـ. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**. تحقيق: سيد إبراهيم. القاهرة: دار الحديث، 2003. وبيروت: دار الفكر.

17- ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**. د.م: دار سحنون للنشر والتوزيع، 1997.

18- ابن عطية؛ أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي المتوفى سنة 546هـ. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. بيروت: دار الكتب العلمية، 1997.

19- علي، جواد. **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**. ط.2. جامعة بغداد، 1993.

20- الفيروز أبادي؛ مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة 817هـ **القاموس المحيط**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1991.

21- ابن قتيبة؛ أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري المتوفى سنة 276هـ **غريب الحديث**. تحقيق: عبد الله الجيوري. بغداد: مطبعة العاني، 1397هـ.

22- القرطبي؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري المتوفى سنة 671هـ **الجامع لأحكام القرآن** المشهور **بتفسير القرطبي**. تحقيق: هشام سمير البخاري. الرياض: دار عالم الكتب، 2003.

23- المباركفوري. **تحفة الاحوذي**. بيروت: دار الكتب العلمية.

24- مسلم؛ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى سنة 261هـ **الجامع الصحيح** المشهور **بصحيح مسلم**. بيروت: دار الفكر. ودار الكتب العلمية، 1977م.

25- ابن معين، الحافظ يحيى بن معين المتوفى سنة 223هـ **تاريخ ابن معين. رواية الدوري**. دمشق: دار المأمون للتراث، 1400هـ.

26- ابن منظور؛ جمال الدين، أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري المتوفى سنة 711هـ **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، 1990.

27- إيزوتسو، توشيهيكو. **الله والإنسان في القرآن، علم دلالة الرؤيا القرآنية للعالم**. ترجمة: هلال محمد جهاد. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، توزيع: بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007.

28- بلاّ، شارل. **تاريخ اللغة والآداب العربية**. تعريب: رفيق بن وناس، وصالح حيزم، والطيب العشاش. د.م: دار الغرب الإسلامي، 1997.

29- Karen Armstrong, *Muhammad of the prophet*. NewYork: Harper Collins, 1993.

30- **مواقع إلكترونية على شبكة الإنترنت:**

- رابطة أدباء الشام: www.odabasham.net
- شبكة نور الإيمان: www.noureleman.com
- موقع إسلام ويب: www.islamweb.net